د. محمد عطية متولي
امام وخطيب اول بوزارة الأوقاف

صناعة الوداد

يحفل العالم بالعديد من المصانع التي تخرج ما تشتهيه الأنفس، غير أن هذه المنتجات تفتقر إلى منتج لا تخرجه الآلات، ولكنه يصنع في القلوب، وإذا شحت هذه السلعة من سوق العلاقات الإنسانية أصيبت الحياة بالعطب، وكانت أقرب إلى الموت.

عندما قالوا: الإنسان مدني بطبعه، هل كانوا يقصدون أنه يأنس بالناس، ومن واجبه أن يؤنس الناس كذلك؟ وكيف لا يفعل وعلاقة المحبة قامت بينه وبين الجمادات، فقد عبر النبي ﷺ عن الحب المتبادل بينه وبين جبل أحد فقال: (هذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه) (متفق عليه). وإذا كانت هذه هي الصورة الطبيعية للعلاقة بين بني البشر وما حولهم من مكونات البيئة، فما هو التصور الصحيح للعلاقة بين أبناء الأسرة الواحدة؟.

تتأسس العلاقة بين المسلمين عامة، وداخل الأسرة خاصة، على المحبة والألفة، ولكن كسائر العلاقات تنمو وتزدهر بوجود ما يعززها، وتخبو وتذبل عندما يلحقها الإهمال من أطراف هذه العلاقة، والعلاقات الأسرية من أشد العلاقات حساسية، نظرا لتشابكها وترتب الحقوق منذ اللحظات الأولى لقيامها.

وهذا يقودنا إلى ضرورة العناية بها، وتحقيق كل ما يحافظ عليها قوية متينة مزدهرة مثمرة أطيب الثمار. وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الأسرة لا ينبغي أن يقتصر على الوالدين والأبناء، بل يشمل الأعمام والعمات والأخوال والخالات والجد والجدة من ناحية الأب والأم.

ومن الأمور التي تساعد على خلق جو من المودة، وتعمل على بقائها، ويمكن أن نتعبرها هي المواد الخام التي ندخلها لمصنع القلب المحب، لتخرج علاقات سوية داخل محيط الأسرة والمجتمع، لتخرج لنا بشرا متزنا، يتبادل الألفة والود مع الآخرين:

- التعاون: ومفهوم التعاون أعم من أن يكون مجرد تقسيم للأعمال بين أفراد الأسرة، بل المشاركة في العمل الواحد متى ما أمكن ذلك، وقد عرفت الحياة الإسلامية في أنقى صورها هذا التعاون الذي يقوم على التقاسم ويقوم على الاشتراك في العمل الواحد. فعن الأسود قال سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله تعني خدمة أهله (صحيح البخاري).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: تزوجني الزبير، وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء، وأخرز غربه[1] وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ. (صحيح البخاري).

وإذا تصورنا أن التعاون هو مشاركة في حمل الأعباء وتخفيفها عن

أحد أفراد الأسرة، فإنه كذلك يوفر فرصة لغرس المحبة ولتنميتها ولإشعار الطرف الآخر بالاهتمام من خلال القيام ببعض أعبائه، وخلال التعاون على القيام بالعمل يتبادل أفراد الفريق كلمات التشجيع والثناء، ويشعر كل طرف بحرص الآخر على نجاحه، وبتكرار هذه المشاركة تثبت المودة بين أفراد الأسرة كبيرها وصغيرها، أبنائها وبناتها.

- العدل: ومما يرسخ المودة بين أفراد الأسرة العدل، فإن شعور أحد أفراد الأسرة بالظلم يحمله على العدوان على الشخص المميز، فإن عجز عن العدوان لرادع من دينه أو لضعفه امتلأ قلبه بالحقد والغيظ والحسد، وسعى إلى التنفيس عن هذا الحقد بكل ما أمكنه، ولنا في أخوة يوسف خير مثال، عندما شعروا بتميز يوسف عليهم فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٨)، وكانت طريقتهم في الضغط على أبيهم حتى ينالوا نصيب يوسف عليه السلام في الحب: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ (يوسف: ٩).

والكبار والصغار في منتهى الحساسية تجاه أي تصرف يحمل تمييزا لأحد أفراد الأسرة، وتبقى هذه المشاعر حبيسة ولو لسنوات طويلة، حتى يتم تفسير سبب التمييز أو تعويض من يشعر بأن تمييزا وقع ضده.

والعدالة لا تعني المساواة، بل تعني إعطاء كل فرد حسب حاجته، مما يترتب عليه بالضرورة وقوع التفاوت، وهذا يحتاج إلى توضيح مشمول بالعطف والرفق والتحمل، ومع الأيام يكبر الصغير ويفهم أن طبيعة الحياة قائمة على التفاوت، بل يمكن دعوة من يشعرون بتمييز الغير إلى المشاركة في بذل العطف الزائد والعطاء، فهذا واجب أفراد الأسرة لمن يحتاجه، كما يمكن إفهامه أن قدرته على العطاء نعمة تستحق الشكر للمنعم سبحانه وتعالى.

بهذه العدالة -حسب الوسع والطاقة- وبتقديم التفسيرات لكل تمييز، يحصل لأحد أفراد الأسرة بصورة تناسب المستوى العقلي لمن نخاطب نكون قد خطونا خطوات واسعة على طريق المودة إعلان الحب وإشاعته بالقول والفعل داخل الأسرة وخارجها والتعبير عنه كلما سنحت فرصة.

إن مشاغل الحياة وطول الألف قد يحول بين الإنسان وبين التعبير عن حبه لأفراد أسرته، بل قد يخجل البعض من ذلك، وإذا نظرنا في دواوين السنة نجد هذا السؤال الواضح للنبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: (عائشة)[1] هكذا وبلا مواربة، وبالنسبة للأبناء كان النبي ﷺ إذا قدم من مغازيه قبل فاطمة[2]، أما الأحفاد فكان ﷺ يقول عن الحسن والحسين: (اللهم إنك تعلم أني أحبهما فأحبهما)[3].

كان النبي ﷺ يحمل أمامة بنت زينب ابنته على عاتقه، ويخرج بها إلى المسجد[4]، قالوا: هذا دفعا لما كانت العرب تفعله من كراهية البنات.

وقدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: (وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة)، وفي رواية: (من قلبك الرحمة)، (صحيح مسلم)، اعتبر النبي ﷺ عدم إظهار العاطفة للأبناء علامة على نزع

الرحمة من القلب.
وإعلان الحب كما نطلبه من الكبير، نطلبه كذلك من الصغير ومن الأخ لأخيه وأخته، ومن المرأة لزوجها والعكس، وبين الوالدين والأبناء، ومن الرجل لوالدي زوجته، ومن المرأة لوالدي زوجها.
ولعل هذا الجانب يحتاج إلى رعاية كبرى وتصحيح لأوضاع خاطئة قائمة مبنية على العداوة بين المرأة ووالدي زوجها، أو على الأقل الفتور الذي لا يتناسب مع صلتهما بالزوج وكذلك بالزوجة، ولا شك أن كل كلمة او موقف يدل على المودة يقدم لوالدي الزوج والزوجة ينعكس بالإيجاب على العلاقة بين الزوجين، بل بين الأسرتين جميعا.
ولعل الفضل للبادئ والمداوم، وفي كل خير.
- لغة المودة: للمودة لغة تخاطب شغاف القلب، وتبدو على قسمات الوجه، تراعي مشاعر الآخرين، وتسقي شجرة المحبة، تجمع المتنافر، وتؤلف بين المتشابهين في الفكر والمشاعر، تعين على قسوة الحياة وشظف العيش، وحتى تكون هذه اللغة معبرة لا بد أن تخرج من قلب محب، وكما قيل: اللسان يغرف من القلب، وأود الإشارة إلى أن الكلمات المزوقة المزيفة تتكشف بعد مرور قليل أو كثير من الزمن، وتصدقها المواقف او تكذبها.
فما أحرانا أن تكون المودة منهج حياة نحافظ بها على العلاقات الإنسانية عامة والأسرية خاصة! نقرب بها البعيد، ونصل بها ما انقطع، ونقوي بها ما ضعف ليستكمل الإنسان إنسانيته.
- بر الوالدين أحد أسباب استدامة الود داخل الأسرة، وأحوج ما يكونان إليه عند الكبر! فكل كلمة طيبة تقع منهما أحسن موقع، وكل كلمة تخرج عن حدود الأدب تترك أسوأ الأثر.
كيف نستديم السود بيننا وبين الوالدين؟
أ - بمؤانسة الوالدين بالذكريات الجميلة، وإشعارهما أن ما صنعاه في الصغر من معروف وإحسان لم ينسه مرور الأيام والليالي.
ب - بطلب المشورة منهما، وكذلك الدعاء.
ج - وبتقديم الهدايا لمن يحبون نيابة عنهما.
د - بقضاء حوائجهما وإن لم يطلبا ذلك.
هـ - وبتيسير لقاء من يحبون من أهل أو صديق.
و- بالنظرة التي تنم عن الإجلال والتقدير، سواء كان ذلك أمام الناس أم فيما بيننا وبينهم، فما بر والديه من حد النظر إليهما.
وبالجملة نستديم الود بإشعارهما أن لهما في القلب أرفع المنازل وأعلى الدرجات.
- تقدير الأبناء: بمنادتهم بأحب الأسماء، وتقدير جهودهم في الدراسة وفي الحياة، وبإعطائهم الفرص، وتحميلهم المسؤولية التي تناسب عمرهم وإعطائهم الحرية اللازمة والمناسبة.
التقارب مع الأبناء:
من خلال جلسات الحوار في شأن الأسرة والمجتمع، والاستماع إليهم مع مراعاة آداب الحديث داخل الأسرة من الكبار والصغار على حد سواء، وإتاحة الفرصة الكاملة للتعبير عن ما يجول بخواطرهم وتحمل اندفاعهم، وتبادل القصص بين الكبار والصغار مع خلط ذلك بمزاح يلتزم بالأدب، ولا ينتقص من صغير مهما كان سنه.
هذه الجلسات من أعظم ما يغذي الود داخل الأسرة، ومما يؤسف له أن بعض الأسر لا تستطيع أن تجتمع في مجلس وتتبادل أطراف الحديث، فما إن يبدأ أحدهم حتى تجد التنافر وكأنهم لا يربطهم رابط؛ تنافر في الأفكار والمشاعر، ولعل سبب ذلك قلة هذه اللقاءات وعدم إدارتها بما يحقق التقارب والتفاهم وما يساعد على وجود جو من الألفة.
- التفقد: تفقد الآلام ما زال منها وما بقي وتفقد الآمال ما تحقق منها وما هو في قائمة الانتظار، وملاحظة أوقات الشرود، ومناقشة أسبابه، إن شعور الإنسان أنه محل اهتمام من حوله يسألون عنه إذا غاب، ويعتنون به إذا حضر، أحد معززات الصحة النفسية والعقلية والبدنية، وأحد السبل لتكوين إنسان صالح ينفع نفسه وينفع من حوله، مع ملاحظة أن التفقد يختلف عن اقتحام خصوصيات الإنسان التي يحب أن يحتفظ بها لنفسه، أو يفضي لمن يختاره من الأقارب أو الأصدقاء.
التفقد سؤال بحب وبدون إلحاح، واكتفاء بما يقدم من إجابات دون الدخول في تفاصيل لا يحب الطرف الآخر أن يقدمها.
إن حياة خالية من أناس تحبهم ويحبوك وتبادلهم المودة الصادقة لهي حياة شظف مهما كان صاحبها غنيا بالمال، ومآل صاحبها الشعور بالاغتراب مهما اكتظ المجتمع من حوله بالناس ومتع الحياة.

الهوامش

١- تخيط الدلو: المعد من الجلد.
٢- قال الإمام الترمذي حديث حسن غريب من هذا الوجه سنن الترمذي ت بشار (٦/ ١٨٩).
٣- مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٤٧).
٤- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ت حسين أسد (٧/ ١٩٠) قال المحقق إسناده حسن.
٥- سنن أبي داود.